بشر متعصبون.. أديان وسياسات وثقافات

التمييز العنصري إزاء الآخر المختلف

القسم الثالث

يرتبط مفهوم التسامح العصري بمفهوم الحداثة التي انبثقت في عصر التنوير واستتبع ذلك ارتباط فكرة التسامح بالأسس الثلاثة المساندة للحداثة التي شاعت في أوروبا وأميركا عندما كانت البلاد العربية خاضعة للسلطنة العثمانية- وتتمثل الدعائم الثلاث بمفهومات جديدة الحياة السياسية وهي : حرية الضمير والعقل بما يعني (الفصل بين المقدس والدنيوي) فصل الدين عن الدولة ثم فكرة (المساواة بين البشر) أي حقوق الإنسان ثم حقوق الأقليات ، رغم أن فكرة الحقوق والمساواة لم تكن جديدة على البشرية لأنها ولدت من صلب الأخلاقيات الدينية والوصايا التي جاء بها سقراط وبوذا والمسيح والإسلام .

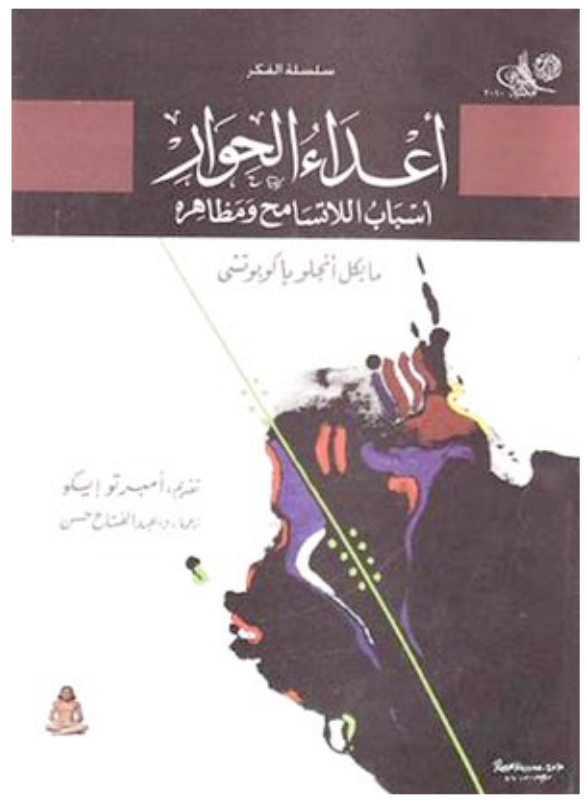

لطفيّة الدليمي

كانت أشكال الحكم في المجتمعات المغلقة السابقة للعصر الحديث – عصر التنوير – تتسم بالاستبداد والحكم الفردي المعتمد على القائد – الأب رمز البطرياركية الأبوية في أجلى صورها، فكانت كلمة الأب القائد الذي يستمد سلطته من دعم المؤسسة الدينية هي الكلمة الفصل في إصدار الأحكام بشكل فردي دون أن يسمح بأي شكل من أشكال المشاركة أو الشورى ، ومن الطبيعي تحت ظل هذا النظام السياسي المتعنت أن تتدنى مكانة النساء وتشتد قوة الأبوية الذكورية المفرطة حتى عدت النساء – وهن نصف المجتمع – جزء من ممتلكات الأب أو الزوج، فكانت بعض القوانين القديمة تبيح للزوج سداد ديونه بالتخلي عن زوجته أو ابنته للدائن – بينما كانت النساء في عصور فجر الحضارة البشرية مكرمات ومبجلات في المجتمع ومعبودات في مجمع الآلهة ثم حدثت الانتكاسة الكبرى للأنثى بهيمنة الآلهة الذكورية العنيفة كالإله مردوخ البابلي وزيوس الإغريقي ..

¬ ولم يكن متاحا حينها الكلام عن مفهوم التسامح والحرية فكان الحاكم يستمد سلطته من السماء بدعم الكهنة ، وعندما تفاقمت هيمنة الكهنة واستبدادهم باسم الآلهة ونهبهم أموال الناس دونما رادع ظهرت تشريعات وقوانين تحد من تفاقم التمييز بين البشر وفي بلاد سومر قام المصلح الأول في تاريخ الشرق القديم – الملك اوروكاجينا بإعلان ميثاقه الشهير ضد الاستبداد واعتبر عمله ثورة اجتماعية غير مسبوقة في سنة ٢٦٠٠ قبل الميلاد – إذ ألغى العبودية ومنح الحرية للعبيد وانتزع الأملاك من الحكام والكهنة الفاسدين وأعادها لأصحابها ولم تقتصر الحرية على العبيد، بل تحرر الشعب من سلطة الكهنة الذين كانوا يستولون على بساتين الناس وأموالهم وأرواحهم – وتعد هذه الوثيقة أول نص تاريخي في العالم يذكر كلمة حرية باسمها السومري (أمارجي) وبعد قرون طويلة من وثيقة اوروكاجينا تراجع مفهوم الحرية والمساواة في أذهان الحاكمين واستبعد المفهومان من الميدان السياسي.

وكان التمييز الطبقي أمراً مسلّما به في مختلف العصور واعتبر نظام الطبقات الاجتماعية في بابل وأثينا – جزءاً من نظام الطبيعة والنظام السياسي الذي كان يعترف بوجود ثلاث فئات كبيرة من البشر يمارس عليها التمييز العنصري – ويجرد أفرادها من صفة المواطنة – مع أنها تمثل الغالبية العظمى للشعب وهي التي تصنع رفاه الطبقات المهيمنة وتتكون الفئات الثلاث من : النساء والعبيد والغرباء وكان العبيد ينجزون التقدم الاقتصادي ويقومون مقام الآلات التي أتت بها الثورة الصناعية في ما بعد، أما النساء فإضافة (إلى وضعهن القانوني المتسم بالدونية والتبعية للأب والزوج في الديمقراطية الأثينية) فقد كن محرومات من التعليم مع بعض الاستثناءات في الطبقات الارستقراطية – وكانت المرأة رهينة المنزل ولا تخرج إلا في الأعياد الدينية والجنائز ، وللمفارقة كان حظ الإماء والعبدات أفضل من سيداتهن إذ كان بوسعهن الخروج وأداء الأعمال، مثلما كانت نساء الحاكم أو سيدات البلاط يتمتعن بحق الخروج من المنزل. ونذكر هنا دعاء الفيلسوف اليوناني الذي يشكر الإله لأنه رجل وليس امرأة وهو حر وليس عبدا وهو يوناني وليس بربريا أجنبيا ..

فكرة الأجناس البشرية اعتباطية وعنصرية

أثبت علماء الأحياء و الإناسة في السنوات العشر الأخيرة ان فكرة الأجناس البشرية ليست ذات سند علمي – فالاختلافات المتعددة بين البشر كما يذكر ياكوبوتشي (تتعلق فقط من الناحية البيولوجية بالخصائص الوراثية فالاختلافات الوراثية بين أفراد ينتمون الى نفس الشعب أو نفس الجنس تبدو بشكل عام أهم من الاختلافات بين الشعوب أو بين الأجناس المختلفة أي أنه من حيث المورث الجيني وفصيلة الدم قد أشارك في الخصائص سنغاليا اسود آتيا من إفريقيا أكثر مما أشارك جارا ابيض من بني وطني !!) ويلاحظ انه لا توجد جماعة بشرية تتوافق مع جماعة بيولوجية خالصة وقد ترتبط شعوب في ما بينها بقرابة وثيقة تتكون من أفراد تختلف ألوانهم والعكس بالعكس ..فيقول الباحث الانثروبولوجي كافالي سفورزا(إن لون البشرة يحكي لنا تاريخ الطقس لا تاريخ الشعوب ..) وان الاختلافات الحقيقية بين الناس كمستوى الذكاء والقدرات والأهلية تتوزع بين البشر بشكل عشوائي وليست خاصة بجنس أو شعب . وفي هذه النتائج رد بليغ على دراسة لعالمين أميركيين هما وليام شيكلاي وارثور يانسين خلال نهاية السبعينيات والتي عادت للظهور بعد عقدين من الزمان وأحدثت بلبلة وإرباكاً في جميع الجهود المناهضة للعنصرية في أميركا وأثيرت من جديد فرضية وجود علاقة بين حاصل الذكاء واختلاف الأجناس وأعادت الى الأذهان النزعة العنصرية التي خفتت في العقود السابقة ثم تبين أنها المشكلة الأعمق في تاريخ الولايات المتحدة – وأثارت دراسة أخرى في هذا المنحى الرأي العام وصبغت البناء الاجتماعي بصبغة سياسية، فهي معطيات تدعي العلمية لكنها ترسخ العنصرية وكانت تقول باختصار (ما فائدة خدمات الرعاية الاجتماعية وإنفاق ملايين الدولارات لرفع مستوى الأقليات العرقية مادامت هذه الأقليات تملك ضعفا وراثيا وبالتالي لا يمكن معالجته)–وحينها اضطر الرئيس الأميركي كلينتون للتدخل وتهدئة الأجواء على مختلف الأصعدة وسارع إلى التنديد بالطبيعة العلمية الزائفة لأساس هذه الدراسات التي ألقت الملح على الجرح المفتوح في نسيج المجتمع الأميركي لذلك عارض الجمهوريون بشدة مشروع الرئيس اوباما للرعاية الاجتماعية والصحية بناءً على هذه الفرضية الزائفة ..

ويبدو أن السياسة والأيدلوجيات المتشددة تضغط على العلماء كما فعلت النازية سابقا وكما يحاول البعض في بلادنا ادعاء أنهم المواطنون الأصليون للعراق وما عداهم طارئون ولا حق لهم في المواطنة العراقية، اعتمادا على كشوف جينية مفتعلة كالتي أتى بها العالمان الأميركيان في دراستهما المثيرة للجدل .

يقول ياكوبوتشي : السياسة تريد علما على المقاس (تفصيل على المقاس)، فتارة يقولون بالمساواة ويستندون إلى المعطيات العلمية، وتارة يوظفون معطيات اخرى للتمييز بين الأجناس .. ومن هنا فرغم ان العنصرية تكشفت عن أكذوبة علمية لكنها لم تمت ولم تنته بل تصاعدت في بدايات القرن الحادي والعشرين لأنها سلوك عقلي متكبر نابع من وضع سياسي واجتماعي معين تجاه الجماعات التي تختلف عنا بخصائص بدنية معينة كلون الجلد والعيون والمعطى الثقافي، وسوف نتقصى في القسم الرابع التمييز العنصري إزاء النساء في الحضارات والأديان والثقافات المختلفة وصولا إلى عصرنا.

(يتبع)

ضيفٌ أخير

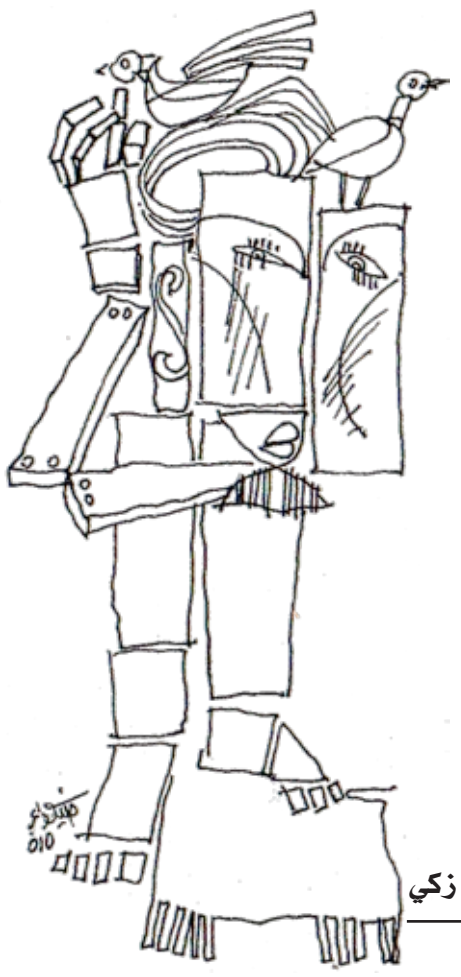

عبد الزهرة زكي

في واجهةِ الدكانِ،
وقد صدأت منه الباب..
وانمحت الأحرفُ في اليافطةِ
المنسيةِ..
تحتِ الأمطارِ ..
وما يتراكمُ من ذراتِ سخامٍ
وتراب،
ما زلتُ أصادفه منذ سنين..
خلف الدكّة..
في المقعدِ ذاتِهِ
منتظراً
بلفافةِ تبغ
ويدين تنشّان فراغاً
وبعينين مفتّحتَين
فلا تريان الى شيءٍ ما.
في الخلفِ
وعندَ رفوفِ الحيطان
تنام المعروضاتُ كما صُفَّت
منذ سنين
وما زالَ صدى صوتٍ من
مذياع
يأتي مرتجفاً عبر الموج
فلا يعبأُ له.
وحده
في المقعدِ
في واجهةِ الدكان
منصرفاً عما حوله
منتظراً
ضيفاً.. يتمنى أن لا يأتي.

١٥ كانون الثاني
٢٠١٢

الشاعر سعد ياسين يوسف في البيت الثقافي بميسان

رعد شاركر

ضمن نشاطاته الدورية نظم البيت الثقافي في ميسان جلسة شعرية للشاعر سعد ياسين يوسف، واستهلت الجلسة التي حضرها نخبة من مثقفي المحافظة بكلمة لمدير البيت الثقافي عرف بها بالشاعر وعلاقاته الحياتية مع محيطه الاجتماعي والثقافي في مدينة العمارة التي شهدت مولده وشطرا من بداياته الإبداعية قبل أن يستقر في العاصمة بغداد، وبيّن صباح السيلاوي أن الشاعر سعد ياسين يوسف من مواليد العمارة ١٩٥٧ خريج كلية الإعلام وحاصل على شهادة الدكتوراه في العلاقات الدولية، أصدر مجموعتين شعريتين هما (شجر بعمر الأرض) و(قصائد حب وهجاء للأميرة) كما أصدر كتاب (في التضليل الإعلامي) عن دائرة الإعلام في وزارة الثقافة ضم مجموعة مقالات وترجم إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية، إضافة لنشره العديد من كتاباته ونصوصه الشعرية في الصحف والمجلات المحلية والعربية.

بعد ذلك قرأ الشاعر مجموعة من نصوصه الشعرية فمن نص بعنوان (ألق المدى) أنشد الشاعر:

"بغداد تخترق المدى/وتطل باسقة الجناح/فكأن سر الله في جنباتها/عطر مباح/بغداد تخترق المدى ألقا/فتخضر الحقول/وتورق الأحلام فوق نخيلها/ بغداد تومئ للمدى/أن اتسع زمنا من النبوءة/واخترقا للمحال/ فلتحمها اللهم... قدس سرها/أطلق لها كل الحمائم/ وامسح على قسماتها بالأخضر المبارك".

ومن نص (قذائف وشناشيل) :"الشناشيل هوت../وتدحرجت حتى أناشيد العصافير الصغيرة/ وألتوت أعناقها وذوت/مذ سقطت قذائفهم/ وتساقطت فوق التراب / قلوبنا .. دمى أطفالنا / أحلامنا / وسمت رؤانا وارتقت راياتنا / ونمت في القلب نرجستي / آويتها من برد هذا الكون / حتى استوت/ وتناثرت فوق الطريق المشرئب إلى الفناء".

بعد ذلك قدم الشاعر حامد حسن الياسري إضاءة نقدية لمجمل تجربة الشاعر سعد ياسين يوسف موضحا: " أن الشاعر يواصل تجربته الإبداعية بصمت ووضوح متوهج في متواليات الحنين الرومانسي العذب مازجا في شعره عوالم الطفولة بالحزن القروي مستلهما رموز الحب ومعطيات الحياة والصور المرهفة في نسيج العبارة الشعرية "، مختتما بالقول أن الشاعر ينشد الحرية ويحس أنه مكبل بأحزان المدن المقتولة في أطراف الشواطئ ومرافئ الأنهار .

هذا واختتمت الجلسة بتقديم البيت الثقافي هدية رمزية للشاعر أعقبتها حوارات بين الحضور دارت بمجملها حول أهم النشاطات الثقافية التي شهدتها المحافظة خلال العام الماضي .

قبل أن تهوي الملائكة.. في كواليس العمل

أسعدني أن أقرأ في المدى الثقافي قبل أيام مقالاً نقدياً بقلم عدنان حسين أحمد عن مسرحية "حين تهوي الملائكة" المأخوذة عن "نوفيلا" للكاتب والمسرحي الروسي أنطوان تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤) تحمل عنوان "العنبر رقم ٦". المقالة تناولت بلغة نقدية جميلة العمل المسرحي الذي عرض في لندن لخمس أماس ونال الكثير من إعجاب المشاهدين من عراقيين وعرب وبريطانيين.

سلوى جراح

خمس ليال قدمت خلالها فرقة "أستوديو الممثل"، كل طاقتها، الأستوديو الذي أنتمي إليه منذ قدم أول أعماله "راكبوا البحر" للمسرحي الإرلندي جون سينغ عام ١٩٩١.

وطاقة "أستوديو الممثل" هائلة رغم ظروف عمله الصعبة، ورغم أن فرقة أستوديو الممثل لا تشبه أي فرقة مسرحية أخرى، فكل أعضائها من غير المحترفين، رغم أن البعض منهم درس المسرح لكنه لم يحترف العمل المسرحي، الكل يعمل من أجل لقمة العيش، حتى مخرجة الفرقة ومؤسستها رونا خليل شوقي، تكسب عيشها وعيش مسرحها منذ عشرين عاماً من عمل بعيد كل البعد عن المسرح. عشرون عاماً وهي تبحث عمن يمول أعمالها المسرحية من دون جدوى.

وعليه فهي التي تلقم مسرحها زاده، تشتري الملابس والإكسسوارات وتدفع كلفة إيجار المسرح. ولا تتجاوز أحلامها وأحلام فرقتها من الناحية المادية أكثر من تغطية كلفة المسرح ومصاريف الإنتاج. كيف إذا تخرج هذه الأعمال المسرحية إلى النور؟

كل تدريباتنا تتم في غرفة صغيرة شيدتها رونا شوقي في نهاية حديقة بيتها الصغيرة نطلق عليها مجازا اسم "الأستوديو" نحولها في خيالنا إلى خشبة مسرح ونحدد فيها مكان الجمهور. والتدريبات تبدأ عادة بعد انتهاء الممثلات من ساعات الدوام. يأتين متعبات بهن من الوهن والبرد والجوع ما يصيب أهل لندن بعد يوم عمل شاق، يبدأ في الصباح ولا ينتهي قبل الخامسة والنصف مساءً. مع ذلك يدخلن بابتساماتهن الواسعة وبكلمات الترحيب والتحية. تستقبلهن رونا بأكواب الشاي وبعض الطعام والحلويات، وتهرع كلبتها الصغيرة "ميشا" للترحيب على طريقتها، تستقبل كل واحدة فينا بهزات شديدة متلاحقة من ذيلها الصغير، حتى أننا بدأنا نشك أن "ميشا" تفهم العديد من أسرار العمل المسرحي.

بدأنا قراءتنا الأولى لمسرحية "حين تهوي الملائكة".. في نهاية الصيف وزعت رونا الأدوار وبدأت كل واحدة منا تتلمس ملامح دورها. هند الرماح الطبيبة تقرأ دورها وتتساءل لم ليست من نزيلات العنبر لتكتشف أنها ستصبح في النهاية من نزيلاته. عشتار المفرجي، هي الممرضة، شخصية أسماها تشيخوف "نيكيتا" رجل قاس قذر يدير حياة النزلاء. فيحاء السامرائي بدور أستاذة جامعية تفتقد لحظات نومها وتظل تردد: "أريد أن أنام أريد أن أرتاح" وتحلم بسرير جديد. نوال جبو، بدور المتسولة التي توزع قروشها على النزيلات وتعرف من أين حصلت على كل قرش: "خذي هذا القرش أعطاني إياه ضابط، لا خذي هذا أعطاني إياه رجل عجوز". وفرات إبراهيم فتاة شابة رمت بها الظروف في هذا العنبر تحب معاكسة صديقتها المتسولة. وكاتبة هذه السطور آنا ديمتروفا الفيلسوفة، الخائفة من مجتمعها والتي تحلم بحريتها. بعد بضع قراءات وشرح المخرجة لأبعاد الشخصيات، بدأت عملية ما يعرف في المسرح بالميزانسين.Mise en scene وهي كلمة من أصل فرنسي تستعمل في السينما والمسرح، وتعني الحركة داخل المشهد وتشمل التمثيل والإنارة والملابس. ونحن في أستوديو روناك شوقي الصغير لا نعرف بالضبط ما يدور في رأسها من التفاصيل المسرحية، رغم أنها تحدثنا عن الديكور والإنارة وتسمعنا بعض ما سيكون في العمل من موسيقى. لكنه حديث أشبه بالتفكير بصوت عال، حديث المخرج مع أحلامه. لذلك تجدنا نحن الممثلات نركز على حركتنا ومعاني كلمات حوارنا وهذا "الميزانسين". كل واحدة تمسك أوراق النص المسرحي وتدور حول محدثتها تقوم وتجلس، تحاول أن تكون الشخصية المسرحية التي تنمو في داخلها، فتخطئ مرة، أو تنسى حركة أو تسقط منها جملة. ومع التكرار تتوضح الحركة ويستقر الحوار وتظهر المشاهد المسرحية متلاحقة متراصة وتبرز الشخصيات حتى نكاد نذوب نحن فيها ونصبحها. ومع الأيام تصير ترافقنا، نأخذها معنا إلى بيوتنا وننيمها في أسرتنا ونردد كلماتها في رواحنا ومجيئنا.

ثم يأتي اليوم الموعود، يوم دخولنا المسرح، ويكون عادة قبل يوم أو اثنين من العرض. وتبدأ الاستعدادات لتحقيق كل أحلام المخرجة، الديكور والإنارة والموسيقى، وكل التفاصيل الصغيرة. وتبدأ ورشة عمل حقيقية يشارك فيها الجميع منفذ الديكور، نحات ترك النحت ليكسب لقمة العيش من العمل كمقاول بناء، ومسؤول الموسيقى فنان شاب يؤلف الموسيقى ويعمل مدير مطعم وشبان آخرون يساعدون في إدارة المسرح وتنظيم دخول قطع الأثاث من كراس وطاولات وقطع سجاد. ونحن الممثلات نساعد هنا وهناك وبين هذا وذاك، نعتاد حركتنا في مكان فسيح أكبر بكثير من الأستوديو الصغير.. كيف ندخل وكيف نخرج، أين نضع أدواتنا واكسسواراتنا أين هي بقع الإنارة وكيف نتلمس مساحة الحركة؟ نعمل جميعا كوحدة متكاملة نتقاسم التعب والمشقة ولقمة بسيطة والكثير من الضحكات. ثم يصمت كل شيء، يدخل الجمهور ونروح نتساءل كم عددهم هل جاء فلان وهل حضرت فلانة؟ نقف نحن الممثلات السبعة نمسك أيدينا في دائرة وتقول رونا شوقي جملتها الشهيرة: "أريد عرضاً مبهراً حافظن على الإيقاع استمتعن وقدمن كل ما عندكن".

لا أدري كيف اصف لحظات الانتظار الأخيرة قبل دخول المسرح. النص يتردد بجمله الكثيرة في الرأس و"الميزانسين" صار حركة طبيعية كأننا لم نعرف يوماً سواها، والملابس والإكسسوارات ملك شخصي نتقن التعامل معه والشخصية تحركنا وتملي علينا رغباتها. لكن القلب يرتجف للحظة حتى تظن أنه سيأخذ استراحة. نخرج إلى خشبة المسرح ويهدأ القلب ويستكين، ويتركنا نتحرك.. نضحك نبكي، نفرح ونحزن ونرى الجمهور بقلوبنا نسمع أنفاسه ونستشعر حماسه، ويطربنا تصفيقه تحية لمشهد أعجبه. ندخل ونخرج وتتابع المشاهد وينتهي العرض ويصفق الجمهور فننحني وقد غمرتنا فرحة أننا حققنا كل أحلامنا وقدمنا عرضنا الذي تعبنا من أجل تحقيقه. ولكن قلة من الناس يدركون معنى العمل المسرحي بلا مؤسسة أو تمويل أو يعرفون ماذا يحدث بالضبط قبل أن "تهوي الملائكة".